مكالمة هاتفية

اليوم نهضت على الساعة الواحدة ظهراً، أمضيت نهاية الأسبوع من حانة إلى أخرى برفقة أشخاص لا أعرفهم، عرّفوني على آخرين لم أعرفهم سابقاً، عرفتهم فيما بعد وكان أن عرّفوني على آخرين، وهكذا كنت أمضي مع كل منْ أراه في البارات ظاناً به صديقاً عرّفني عليه صديق آخر. وهذه هي حكمة السكارى الذين نهرب من العالم لنبقى برفقة الآخرين الذين هربنا منهم في حالة صحو. ليست هذه هي الحكاية التي أريد أن أذكرها، ولكنها حدثت لي ما أن نهضت صباح اليوم التالي لنهاية أسبوع ثمل. حكاية حقيقية من الأول إلى النهاية، ليس لي بها أية يد ولا تدخل ولا لعب فني ولا مما يمكن أن يخطر على بال أحد. الحكاية أسردها تماماً كما جاءت بدون أي تطويل ولا زيادة ولا تجميل. هي واحدة من هذه الحكايات الواقعية التي تجعلنا نشك مئات المرات بقدرة خيالنا على أستيعاب الواقع.

ما أن جلست في الصالون متلذذاً برشفات قهوة و سيكار كوبي صغير وجدته مرمياً في علبة قرب جرائد قديمة على المنضدة، ربما أهداه لي أحدهم (لا أذكر من هو حقيقة)، حتى انتبهت إلى أن هاتف البيت يشير ضوئه المنبه إلى أن هناك أكثر من عشرين مكالمة هاتفية في الليلة السابقة. حاولت معرفة من أتصل بي ولكنني وجدت الرقم مشفراً ولا يشير لأي جهة ولا لأي شخص. قبل أن يتيح الوقت لرأسي الدائخة أن تحزر من يمكنه ان يتصل بي وبإلحاح كل هذه المرات، حتى

رن الهاتف، راقبت الرقم ووجدته مشفراً لا يشير لأحد، فتحاملت على نفسي وأجبت لأعرف من هو هذا الذي يصر بلا هوادة ليكلمني:

– آلو

– آلو تفضل...

– هل يمكنني أن أتكلم مع السيد عبدالهادي

– أنا هو...

– الأستاذ سعدون

– نعم بعينه...

– غريب، البارحة أجابتني السكرتيرة قبل ان تقول لي أنك في إجازة

– سكرتيرتي...

– نعم، هي أخبرتني بذلك

– لكن ليس لي مكتب كي تكون لي سكرتيرة ولا...

– أقول لك الحق، وأنا أيضاً تفاجأت

– وهي قالت لك ذلك...

– أجل، هذا ما فهمته منها، إذ أن أسبانيتي ليست على ما يرام

– إذاً حدثتك بالإسبانية...–

– نعم بالتأكيد، رغم أنني أقول أن لها لهجة غريبة، من الممكن أن تكون مغربية ولم ترغب أن تهذر معي بالعربية، تعرفهن كيف يكن، ما أن يتعلمن لغة أجنبية حتى يرفضن الحديث معنا بالعربية.. حزرته من انفعالها، أظن أنها قالت لي كلمة بالعربية ثم غيرت رأيها وعندما أصريت عليها، سمعت موسيقى أو صوت منبه.

– ياه، ربما.. منبه.. حتماً...

– قد يكون، ولكنها الملعونة في المرة التالية، كانت لها لكنة فرنسية تماماً وكلمتني بالإسبانية، وأنا لم أفقه منها حرفاً واحداً.. كنت أكرر أريد أن أتحدث مع سعدون، الأستاذ سعدون، السيد عبدالهادي، ولكنها لم ترغب بالإستماع، لينقطع الإتصال، وأحاول مرة أخرى، ومن جديد بلكنتها الغريبة وتصر على محادثتي بالإسبانية رغم أنني أؤكد لها أنني لا أعرف شيئاً من الإسبانية، فقط أريد الحديث مع السيد سعدون..

للحظة وأنا أستمع له، الحقيقة فكرت أن أغلق الخط، أو أن أتركه يهذي إلى الأبد دون إجابة، ولكنه بالتأكيد لن يتركني أمضي يومي بهدوء، لذا قررت أن أجاريه إعتقاداً مني بأنه معتوه، أو مجرد رجل غريب يسأل عن حاجة، فواصلت مجاراته:

– لا يهم، سأحاول معرفة من وراء ذلك...

– إمرأة وليست رجلاً، أقول لك ذلك حتى لا تخطئ بمعاقبة المقصر، ويمكنني مساعدتك لأنني أعرف صوتها جيداً.. بالطبع ليست هذه الأيام، فأنا مشغول بعدة أعمال، ولا يمكنني السفر إلى مدريد، ربما في مناسبة أخرى.

– إذن حضرتك لا تعيش في مدريد...

– كيف أعيش في مدريد أستاذ عبدالهادي، ألم تسمع بقانون ترحيل المهاجرين

– آه، ولكن ما علاقتك بهذا...

– أنت محق، ولكنك تعرف أنه بعد طلاقي من ماريا تريسا، العاهرة هذه، لم أستطع الحصول على عقد عمل ومرت الأعوام الخمسة ولم أجدد الإقامة وسقطت عني الهوية القانونية، لذا أتجول في المناطق الريفية النائية حتى لا أتصادف مع شرطة الهجرة..

– انت في مكان نائي...

– عذراً أستاذ، أعرف أنك ثقة، ولكنني لا أستطيع النطق بمكان تواجدني، الحيطة يا أستاذ الحيطة

– أنت محق، الحيطة ضرورية...

– ثم أنه من الضروري ألا نشك ببعضنا البعض

– هذا ايضاً...

– والثقة ليست كلمات وحسب، عشرة طويلة

– تقول عشرة طويلة...

– طبعاً، ماذا تسمي ستة أعوام من النيك ليل نهار والخدمة في كل شيء

– عفواً لم افهم...

– العاهرة تلك، ماريا تريسا، أعوام أقول لك، نيك وتدليل ليل نهار، وها أنت ترى النتيجة

– فهمت...

– أنت أكثر من يدرك محنتي أستاذ، من يكوى بالنار يذق حرقها

– تقصد...

– أعرف أنك لا تريد أن تتحدث عن علاقاتك السابقة، ولكننا أصدقاء، ونعرف أسرار بعضنا

– ماذا...

– ولكن على أية حال، علاقتك بـ أنجيلا ليست مثل علاقتي بهذه العاهرة ماريا تريسا

– .....

– لا أعرف كيف وماذا يمكن أن يفعل الواحد منا في هذا الزمن الرديء

– ولماذا لم تفعل شيئاً مع ماريا تريسا لطالما..

– لا تذكرها لي رجاء، كيف يمكن رتق الكأس بعد أن ينكسر. تعرف ظروفي أستاذ، ومع ذلك كنت أفعل المستحيل كي تكون سعيدة، كانت تسميني فحلها، الفحل أبو إير لا ينام، الحبشي القاتل، المورو المتوحش، السفاح الذي لا يكل ولا يمل، وكل ذلك تأتيني بحكاية انها بعد كل هذه السنين بدأت تشعر بالملل ولم تعد تشعر باي ميل عاطفي نحوي.. هل أقطع أوردتي واموت، كي أؤكد لها أنني لا أفهم معنى الميل ولا العاطفة التي لم نتحدث فيها وعنها طوال ستة أعوام

– شيء من التغيير لا يضر...

– برحمة أبوك أستاذ لا تحاول أن تبرر لها

– لست ابرر...

– المسألة بسيطة، العاهرة ملت من النيك معي وأرادت البحث عن آخر

– آه، ربما

– لا ربما ولا هم يحزنون، مسكتها بيدي هاتين

– .....

– متلبسة كما تقول أنت أستاذ. كان قبلها قد حدثتني عن التباعد الروحي والجسدي وما إلى ذلك من ألعاب العاهرات، ولكنها لم تقل شيئاً بعد عن إفتراقنا النهائي. في يوم من الأيام، عدت ظهراً، كان الوقت صيفاً وجهنم فتحت أبوابها علينا تلك السنة، وما أن دخلت البيت حتى سمعت صراخاً لا مثيل له. ركضت ناحية الغرفة خشية من وقوع حادث لها أو مكروه ولكنني آه... ووجدتها العاهرة تمتطي شاباً صغيراً وتصرخ وكأنها مهرة. لم ترني هي ولكنها أحست بخوف الصبي ومحاولته إنزالها من فوقه، حينذاك أنتبهت، ولكنها لم تنزل بل أوقفت الصبي المرتعب، ودارت ناحيتي قائلة: لقد حذرتك أن كل شيء أنتهى بيننا، الآن رجاء أخرج فأنا في غرفتي ولي خصوصياتي.. تصور.. العاهرة، تعملها في غرفتنا المشتركة وتطلب مني الخروج.. هكذا ببساطة

– و أنت...

– كيف أصفها لك، دارت الدنيا في عيني، ولم تكن سوى بحجم حبة خردل

– لم تفعل شيئاً ...

– ماذا، أفعل. يا إلهي، هجت وكأنني في معركة ولم أعرف من أين ابتديء

– تقول أنك...

– كسرت البيت على رأسها، جررتها حتى السلم وطرحتها هناك، وعدت راكضاً لأمسك الصبي، ولكنه هرب عارياً من النافذة، وكنت قد قررت إيقاعه، ولكنه كان محظوظاً إذ نزل من البالكون مباشرة حتى الشارع، رمى بنفسه، سقط، أنكسرت قدمه أو كل أضلاعه، لا يهم، وما أن طللت برأسي حتى وجدته يركض في الشارع هائماً، خصيتاه تتأرجحان، وأيره قائماً كقصبة تحركها الريح...

– يا للوصف المذهل...

– لا تتحامق معي أستاذ، رأيته وحسب بهذا الشكل، ولكنني لم أتوقف عند ذلك، قررت النزول والركض وراءه. ما أن خرجت حتى وجدت جمع الجيران عند السلم متأهبين للإنقضاض علي، وبقدرة سحرهم أخفوا العاهرة عني، لبدت في بيت أحدهم. صرخت بهم وهددتهم وحاولت أن أدخل أقرب باب مفتوح ولكنهم لم يسمحوا لي بل انقضوا علي يريدون مسكي وتسليمي للشرطة.. تصور أنا أمضي للشرطة، والعاهرة يتوجونها.. صرخت بهم يا أولاد القحبة ألا تدركون مصيبتي، تخونني مع صبي وتريدون حمايتها.. لم يسمحوا لي سوى بالهذر فقد ربطوني بينهم، كل يد ساعدت بمسكي محاولة منهم كي لا أقوم، وأبدأ البحث عنها.. عن الزانية تريسا، بينما كنت في محاولاتي بالرفس والتخلص منهم، كنت أسمع صوتها يأتي من أحد البيوت وهي تحثهم على أن يتصلوا بالشرطة ويسلمونني لهم (ليسجنوا هذا المتخلف، لقد أذاقني المر.. التعاسة، ويأتي الآن ليتهمني بالخيانة.. آه يا إلهي ماذا فعلت بحياتي!) فلم أتمالك نفسي وأنا أسمعها تنتحب وتكذب سوى

أن جمعت كل قواي وطرحتهم بعيداً عني، فرأيتهم يتراكضون كل واحد إلى بيته ويسدون أبوابها دوني.. لطمت، صرخت، كسرت الأبواب وأنا أهددهم أنني لن أتركهم بحالهم إن لم يسلموني قحبتي تريسا كي أشفي غليلي منها.. لكن لا جواب، الخوف أخرسهم وكنت في كل دقيقة تمر أكثر شراسة وإنفلاتاً، لم أترك أي شتلة في الممر ولا نبتة أو مزهرية أو قطعة موزاييك هناك دون أن أرمي بها الأبواب حتى تركت الممر يرثى له من الأزبال والأتربة.. آه ويا سبعين آه.. لكنني لم احظ بها، بهذه الزانية لأريها نجوم الظهر، فقد سمعت بعد لحظات أصوات ووقع أقدام قرب بوابة البناية الرئيسية وتناهى لي أن أحدهم من خلف الباب يقول أن الشرطة قد وصلت وسيقطعون لي عضوي ويحشرونه في إستي.. نعم بحق رأسك أستاذ قالوها حرفياً وليست من خيالي.. هجت ورفست الباب الأول والثاني والثالث وهكذا غبت في شقتنا ومن هناك رميت بنفسي من النافذة الخلفية ورحت أركض بلا وجهة معينة بعيداً عن الشرطة أولاد الكلب الذين سينقضون علي ويرمونني في السجن وينتصفون لزانية مثلها، هذه هي العدالة، هل هذه عدالة بربك؟!

– .....

– أنت معي أستاذ؟

– أجل معك، يا للحكاية المروعة...

– أليس كذلك أستاذ، ولكن لتصبر علي، فلم تنته بعد

– آه، ما تزال للحكاية بقية...

– طبعاً، وهل تظن بي الحمق كي أترك الزانية تستمتع بالراحة والنيك والبيت، وأنا آكل الضيم والتشرد

– طبعاً لم تفعل ذلك...

– كيف ذلك، رحمة لوالديك أستاذ، منذ لحظة خروجي من البناية هارباً وأنا لا هم لي سوى تتبع أخبار الزانية تريسا، ولا وقت عندي أمضيه غير ترقب فرصة

لمعاقبتها. كان شغلي طوال الخمس سنين الأخيرة تتبع آثارها، متى تمضي للعمل، وقت خروجها، مع من تخرج، من يزورها في البيت، سفراتها، عطلها الصيفية، الشتوية، الربيعية، كنت أسجل كل تحركاتها.. ولكنني للأسف لم أستطع الإقتراب منها بعد، فالشرطة كانت تراقبني ولم أترك لهم فرصة النيل مني، كما أنها كانت محاطة بحراسة مشددة، تصور القحبة وأنا أراقبها من زاوية شقة استأجرت غرفة فيها تقع أمام بنايتها تماماً، من منظار مراقبتي، رأيتها تفتح فخذيها للجميع، لكل من يقدم لشقتها، رأيت حرسها من الشرطة براحتهم في البيت، يمتطونها الواحد بعد الآخر.. ومن ثم نطلب عدالة من هؤلاء، لا بد أنها صادقتهم كلهم، ومن يغمس في طبون تريسا، لا بد أن يقع صريع فتنتها، ومن ثم في كل يوم لها حارس جديد، وعاشق وخادم ولا تخرج إلا برفقة أحدهم. كنت أعرفهم واحداً واحداً، ولكن بعد كل هذه السنين، لم أستطع تخمين عددهم، ومع الوقت بدأت أنسى أشكالهم، ولكن شكلها، الزانية، مجسماً أمام عيني لا أفارقه، وانتظر كل يوم فرصة سهو أو نسيان من احد حراسها كي تراني بمواجهتها ولا مجال حينذاك لهرب أو معاتبة، ستكون فرصتي للقصاص منها. ساحملها معي بغمضة عين، سأكمم فمها وأسحبها حتى الأحراش في المنطقة الزراعية النائية حيث أهيم متشرداً، وحينذاك سأحاسبها بتأن.

– لا تعني أنك...

– لا، لا تتصورني همجياً أستاذ، كل ما في الأمر سأعاقبها بالوحدة، سأعاقبها بعدد أيام تشردي وتعاستي.

– كيف ذلك...

– ألم تقرأ حكاية (الجلاد والضحية)، أجدني في نفس الموقف الدفاعي، القصة ذاتها

– ولكن الحكاية لا تنطبق على ما جرى معك...

– كل شيء نفسه، الظروف، الظلم، الحسرة، لا تنظر للمحتوى الحكائي فهو هش بحد ذاته، ولكن القصاص، العدالة، الإنسان ينتصر في النهاية.. أنت ناقد مهم أستاذ وحكواتي، فكيف تفوتك مثل هذه التفاصيل

– آه شكراً، ولكنني ما زلت مصراً على أن القصة لا تخرج عن أن تكون محاسبة أخلاقية في زمن ما بعد حرب ودكتاتورية و...

– وهل هناك أكثر دكتاتورية ومحاسبة أخلاقية وزمن حروب مثل التي مررت بها وعشت ظروفها بسبب هذه الزانية تريسا.

– لنقل هذا، ولكن أنت تعلم بالنتيجة، القصة تنتهي بترك كل شيء على حاله، لا دم ولا جريمة ولا ...

– أجل، أجل، هنا هو ضعف حكاية (الجلاد والضحية)، الشعور الإنساني ينتصر للخير، ولكن الحقيقة أننا لا نملك تلك القدرة الإلهية على العفو، العفو من قدرتهم هم وحسب، أما نحن البشر فمهمتنا أن نمضي في الحياة بشريط لاصق و مقص وحبل متين و قدرة مشاورة الأيام التي مضت التي ستنتقص لي ولن تمنح العفو للعاهرة تريسا.

– إذن نرجع من جديد إلى أنك لا تنوي فعل الشيء نفسه في الجلاد والضحية وتعفو عنها...

– سيكون كل شيء بطريقة مختلفة، مبتكرة، لن تنساها تريسا طوال ما تبقى لها من حياة، صدقني ستطلب مني بنفسها القصاص على أن تتابع تفاصيل ما أنوي لها من يوميات مبرمجة ومكتوبة منذ فترة طويلة، حتى أنني سميتها (الزانية والضحية) وهي ما يمكن أن أسميه أفضل حكاية كتبت عن العدالة بعد رواية (البؤساء)، ألا ترى أنها جديرة بأن تظهر للعلن؟.

– ألا تقول أن الشرطة تتبعك...

– لا أعني هذا، أقصد قصتي، الحكاية التي كتبت وقصصتها عليك، (الزانية والضحية)!

– تقول أنها قصة.. وحكايتك مع تريسا و...

– هي نفسها، القصة، حكايتي، الظرف الإنساني، أنت تعرف أن القصص الواقعية اليوم هي التي تحظى بجمهور واسع، قراء أستاذ، قراء.. ها ماذا قلت أستاذ؟

– عن أي شيء...

– أن تنشر لي القصة، لن أطالبك بأي مردود مالي، يكفيني أن أراها منشورة في كتاب، وليس المهم أن تحمل أسمي، الأهم أن يطلع العالم على حكاية جديدة عن العدالة.

– ولكن ما علاقتي بالنشر و...

– أنا متابع لك منذ سنين أستاذ وأعرف أنك تدير مجلة وصاحب دار نشر، أفضالك على كثير من الكتاب.

– عن أية أفضال تتكلم وأي دار نشر...

– حاول، أرجوك، ليس من أجلي، بل من أجل الإنسانية. إن وجدتها طويلة على مجلة، سأمنحك حق نشرها في كتاب مستقل، لن أزعجك صدقني، فقط سأرتاح عندما أراها منشورة.

– هل تقول أن كل ما سردته لي هي القصة نفسها التي تنوي كتابتها...

– كتبتها أستاذ منذ فترة طويلة، فقط أترقب النهاية لا غير.

– طيب وما هو المطلوب...

– لا شيء، أنتظرني حتى أبعثها على عنوانك، سيكون عليك أن تنتظر قليلاً حتى أجد لها نهاية مدهشة، مشوقة، فكما تعرف أنني حتى اللحظة مازلت حائراً في إيجاد ختام مقنع، ولكنها ستجيء اليوم أو بعد شهر.. ستكون عندك في

غضون فترة قصيرة، سأعتمد عليك، أنت أملي الوحيد بالحفاظ على وجودي، على نشر الحكاية!

– ...

– أقول اتفقنا، لن أهذر بالمزيد، سأحرص على أن تكون عندك قريباً. ياه...

– عفواً، هل تسمح لي بسؤال؟ منْ حضرتك إذا أمكن؟ سألته أخيراً.

كان الخط قد أنقطع، قطع، أو ببساطة أنتهت المكالمة الهاتفية.

لم يصلني بعد هذه (الياه) التي أطلقها كرصاصة راحة أبدية.

بقيت حتى الآن أفكر ماذا قد اختار الروائي صاحب (الزانية والضحية) من نهاية لحكايته. هل من المفروض علي التأكيد على أنني لم أعرف بعد ذلك عنه أي شيء. لم يعاود الإتصال، ولم تصلني منه اية رسالة.